بدلاً من الخاتمة: لماذا؟

في ذات يوم ظهر في معسكر البعثة الأثرية الألمانية التي تعمل في التنقيب عن بابل زائر غريب في ثياب بالية تماماً بتفصيل أوربي «زي أوربي» مع قبعة مكرمشة على الرأس ومظلة مكسورة وصرّة من الحوائج الرثه في اليد، وبالكاد استقبلوه على أنه متشرد. وكما ظهر أنه الأب جونسون من جامعة القديسة مريم في القدس، هذا الرجل العجوز المتواضع اجتاز لوحده بصعوبة لا تصدق الطريق من فلسطين عبر الصحراء السورية اللافحة لكي يلقي نظرة عند أفول شمس العمر على ما تبقى من بابل المقدسة، وفطن له روبرت رئيس البعثة واستقبله بإكرام.

وما إن بدأت التنقيبات في بابل حتى امتدت جموع الناس إلى خرائب هذه المدينة من مختلف الأجناس «ألوان البشرة» والقوميات والمعتقدات. ولم ينقطع هذا السيل حتى هذا اليوم وكلهم يسعون ليروا بابل بأم أعينهم لماذا؟

نعود من جديد للسؤال الذي يقع في بداية الكتاب لماذا بابل بالذات تستأثر بهذا الاهتمام؟

وترجع التنقيبات في بابل إلى عدد من أضخم وأهم علماء الآثار في التاريخ غير أنهم كانوا في حينه معتبرين فاشلين.

واعتبر أقطاب العلوم الرسمية أنفسهم مخدوعين في أفضل توقعاتهم، وشوهوا في كثير من حملاتهم التي لا نهاية لها بجهود روبرت كولدفيهي وأوصلوه إلى القبر قبل الأوان واعتبروه مذنباً لأنه لم يجد كنوزاً ذهبية مثل تلك التي اكتشفها ليونارد فوللي في المدافن الملكية في أور، ولا مكتبات ولا تماثيل ولا نقوش مشابهة التي اكتشفت في خرائب المدن الأشورية نينوى ودور شاروكين وآشور وكلخ.

روبرت كولدفيهي - سيئ الحظ! لقد عثروا على أرشيفات وثائق العمل في تلال بابل قبل وقت طويل من تنقيباته. واكتشف علماء الآثار الفرنسيون في عام ١٩٠١ م العمود البازلتي الذي آثار ضجة بنص شريعة الملك حمورابي المكتوبة عليه في سوز.

وهو لم ينقب في هذا الوقت نفسه في بابل فالمياه الجوفية لم تسمح بالتنقيب عن بابل الألف الثانية قبل الميلاد، وكانت المفاجأة الوحيدة في تنقيباته هي بوابة الإلهة عشتار ولكن حتى هذه لم ينقلها كولدفيهي: فقد مات في عام ١٩٢٥ م قبل عام من إعادة ذلك الأثر الشهير إلى كامل فخامته في متحف آسيا الدنيا في برلين.

واكتشف روبرت كولدفيهي بابل عهد نبوخذ نصر الثاني وعثر على بقايا برج بابل ومعبد إيساجيله والحدائق المعلقة والقصر الملكي والجسر عبر الفرات والأسوار وشوارع وبيوت بابل، لكن ليس هذا ما انتظروه منه فكل ذلك كان معروفاً علمياً قبل التنقيبات. هكذا كان التقييم الرسمي لعمل روبرت كولدفيهي الذي أعطاه حياته، إلا أن أناس القرن العشرين يأتون ويأتون وينحنون لماضيه، لأطلال بابل الملعونة التي نقب عنها روبرت كولدفيهي. فما الذي يجتذبهم إليها؟ لأن تنقيبات كولدفيهي برهنت بأم العين على وجود بابل وعجائبها المعروفة لكل البشرية. والناس الذين ليس لهم أي صلة بعلم الآثار ولا بالتأريخ قبل الأب جونسون تحملوا مشقات لا تقهر ليتأكدوا من هذا بأم أعينهم. وهنا تتلخص المأثرة الخالدة لروبرت كولدفيهي تجاه العلم.

الشيء الذي لم يستطع ولم يرد أن يفهمه مضطهدوه من المتحذلقين. والآن صار القارئ يعرف الكثير عن فضل بابل والبابليين على الحضارة العالمية. ولكن ليس في هذا يكمن سبب الاهتمام الدائم ببابل، فليست بابل عموماً هي التي تثير الاهتمام وإنما بابل نبوخذ نصر الثاني بالذات هي التي تثير ذلك. بابل عهد البلبلة التي اكتشفها روبرت كولدفيهي، وهذا يعني بابل المصابة بعلة قاتلة وبهذا يتلخص الجواب على السؤال الذي يهمنا: لماذا كانت بابل عهد البلبلة أول مجتمع في العالم القديم يدخل في طور الأزمة، وفيه تعرت للمرة الأولى علل وعيوب الحضارة التي أذهل وأرعب منظرها الشعوب المجاورة ولا سيما اليهود والهيلينيين القدامى الذين تركت لديهم انطباعاً لا يمحى، واستطاعوا أن ينقلوه لبقية البشرية ومنذ ذلك الوقت غدت بابل نموذجاً ورمزاً للكائن الحي المتعفن.

ومنذ زمن بعيد لم تعد بابل موجودة، إلا أن كلمة «بابل» و «البلبلة البابلية» و «بابل الزانية» والقول المأثور أعلاه

« مَنَا مَنَا تَقَيْلُ وَفَرْسِينُ» ما زالت تدور على ألسنة الناس منذ ٢٥ قرناً من الزمان.